

## ”محاولات الدول في تنظيم تعاون عالمي“

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد رفعت بك

مدير عام التعليم الثانوي بوزارة المعارف

إن ارتباط شعوب العالم المتمددين في نظام سيامي واحد فكرة قديمة يمكن تتبع أصولها في عصور التاريخ المختلفة .

ففي العصور القديمة كانت غزوات كبار الفاتحين كالاسكندر وقيصر ترمى الى نشر النفوذ الأغريقي والروماني على التوالي بين الشعوب المعروفة في ذلك الوقت، وكان النظام الذي أقامته الدولة الرومانية وساد العالم عدة قرون في ظلال السلم أعمق أثرا وأبقى على الزمن من أي نظام مضى أو جاء بعده الى الآن . فقد كان في الدولة الرومانية أقوام مختلفون جنسا ولفة ودينا وعبادة فكانت روما تفرس فيهم جميعا حضاراتها وتنشر ثقافتها وتمدد طرقتها وتقيم جسورها وتطبق قانونها وتمنحهم جميعا حقوق أهل روما نفسها، وكان من أثر هذه الطمانينة بين الشعوب أن اصطفوا للسلم صفة ينعتونه بها وصلة ينسب اليها فاطلقوا عليه سلام روما .

غير أن هذا الارتباط كان أساسه القوة وقد قام مستندا الى حراب القبائل الرومانية التي كانت تحافظ على تخوم الدولة وتمنع عنها غارات أعدائها خارج الحدود . فلما ضعف المستند وبدا للناس أثر انهزام الجيوش الرومانية على أيدي القبائل المتبربرة التي أغارت على أملاك الدولة في أوروبا انهار البناء من جميع أركانه وعم الاضطراب وانحلت الدولة العالمية التي كانت ملء أسماع الناس وأبصارهم الى أقطاع صغيرة .

وهذا مصير كل نظام يوضع وضعا أو يبنى إملاء ويقوم على مجرد القوة والجبروت مهما تباينت المصور واختلفت الأساليب .

جاءت بعد ذلك فترة العصور المظلمة أو العصر الوسيط وهو عصر رغم ما ظهر فيه من انحلال في جميع المرافق السياسية والاقتصادية والثقافية فإنه قد أضاء بنور الأديان الالهية التي دعت الناس الى عبادة الله تعالى وأشاعت بينهم روح الاخاء والمحبة والمساواة فظهرت المسيحية أولا ثم ظهر الدين الاسلامي الخفيف . وكان الرسل الكرام في نشر دعوتهم يؤسرون بتعمير رسالاتهم وإعلان الاخاء والمساواة والعدل بين الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم . جاء على لسان الرسول الأمين ”أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى “ وقال الله تعالى في كتابه الكريم ”يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِخْوَةٌ قَالُوا بَعْضٌ مِّنْكُمْ أَكْرَمٌ مِّنْ بَعْضٍ لَّيْسَ بِكُلْمٍ إِلَّا عِندَ اللَّهِ تَرَاهُمْ جَاءُواكَ

في يوشع من العهد القديم ” واقطع لهم عهدا في ذلك اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض واكسر القوس والسيف والحراب من الأرض واجعلهم يضطجعون آمنين“ وجاء في سفر أشعيا ” فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد “ .

وكانت الكنيسة المسيحية قد جذبت إليها أباطرة الرومان فعمد قسطنطين أمبراطور الرومان مسيحيا سنة ٣٢٠/٣/٠/٢ ومنذ ذلك الوقت اتحدت المسيحية والأمبراطورية . فلما سقطت الأمبراطورية قامت الكنيسة تؤدي للشعوب ما كانت روما تؤديه من رعاية وزعامة حتى ورثت الكنيسة عن الدولة الرومانية صفتها العامة فصارت تعرف بالكاثوليكية أى الجامعة وأصبح لبابا روما سلطان روى أخذ ينمو ويقوى بدخول القبائل المتبربرة في الدين المسيحي حتى شمل جميع ملوك أوروبا وأمرائها وصار البابا هو الهيئة العليا التي يخضع لها جميع الملوك والأمراء في مشاكلهم وخلافاتهم في عهد شرمسان حتى الأمبراطور نفسه لما أعيد تنشئة الدولة الرومانية المقدسة في آخر القرن الثاني وصارت له السطة الزمنية والسياسية كان يدين بتاجه الى البابا ومن عصاه منهم فان البابا لم يكن غفورا ولا رحيا .

وقد كان لاشترك الأمم في العقيدة المسيحية توسير الناس في جميع الأصقاع على نهج مسيحي واحد أثر ظهر في ارتباطهم معا في أثناء الحرب الصليبية رغم الحواجز الطبيعية والمسافات الشاسعة التي كانت تفصلهم بعضهم عن بعض ، وفي الحق يعتبر ارتباط الشعوب الأوروبية في أثناء الفترة التي سيطرت فيها الكنيسة والبابوية أقرب النظم الى فكرة التعاون الدولية الحديثة .

غير أن البابوية ما لبثت أن انقسمت في الماديات وانصرفت عن طريق التقوى والصلاح فقامت حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر بزعامة لوتر فانقسمت الكنيسة ودب الخلاف بين المسيحيين وانقرط عقد ذلك الارتباط السيامي والروحي الذي ساد في العصور الوسطى فترة من الزمن . وكانت الروح الوطنية والقومية قد أخذت تشتد وتموحتى استحالت الدولة الى إمارات ودويلات ثم تكونت من هذه الإمارات ممالك أخذت تفر كل منها باستقلالها وتفخر باتساع رقعتها حتى وقعت في حروب ظلت مستمرة الى أن قامت الثورة الفرنسية ، وجاء القرن العشرين ، غير أنه على الرغم من الحروب المتوالية التي اشتركت فيها دول أوروبا في ذلك الوقت لم تكن تلك الفترة خلوا من المشروعات النظرية والآراء السياسية التي كانت ترمي الى تحقيق السلام وتكوين اتحاد عام يشمل الدول المختلفة ، واول هذه المشروعات جادت قريحة الوزير الفرنسي الشهير ” سالي “ في عهد ملك فرنسا ” هنري الرابع “ آخر القرن السادس عشر ويعرف اقتراحه ” بالمشروع العظيم “ .

اقترح "سالى" تكوين اتحاد مسيحي من دول "أوربا" تشرف عليه هيئة عليا تقوم بتسوية المناشاكل التي تنشأ بين الدول ويخشى منها على السلام، وقد قسم الدول إلى مجموعات متجانسة بفصل مجموعة من الدول الملكية مثل إنجلترا وأسبانيا وفرنسا وأخرى من الدول "الجمهورية" مثل سويسرا والبنديقية وثالثة من الدول الملكية غير "الوراثية" مثل بولانده والأملاك البابوية "والامبراطورية" نفسها .

وفي ذلك الوقت أيضا ظهر كتاب المشرع الهولندي "جروتيس" عن القانون في الحرب والسلام، وأهمية هذا الكتاب هو أنه أول محاولة في درس العلاقات الدولية بين الأمم وترابطها بواسطة القانون .

ثم "وليام بن" الانجليزى الذى أنشأ عهد الأخوة وأنشأ مستعمرة بنسلفانيا في أميركا ووضع العلاقات بينها وبين المنود الحمر على أساس من التعاون وتوطيد السلام .

وفي سنة ١٦٩٣ ظهرت رسالته في سبيل السلام الحاضر والمستقبل في أوربا، وهى رسالة أساسها مشروع "الوزير" الفرنسى سالى وقد اقترح بن إنشاء برلمان أو "ديباط" يجتمع فيه مندوبون عن الدول الأوروبية في فترات معينة لبحث جميع المناشاكل التي يتعذر حلها بالطرق الودية وأنه إذا امتنعت دولة عن قبول حكم البرلمان أو حاولت بالحرب تنفيذ إرادتها فإن الدول الأخرى تتعدد مما لقمعها وتمويض الدولة المهتدى عليها، وبهذه الطريقة يضمن السلام بين دول "أوربا" .

ومن ظريف ما اقترحه بن عند بحث التفاصيل الخاصة بتنفيذ مشروعه أن يجتمع البرلمان في ردهة مستطيلة الشكل لها أبواب عدة يدخل منها ملوك ورؤساء الدول فرادى ويخرجون دون أن يتحدثوا ككافهم أو تمس كرامتهم بتفضيل واحد على الآخر .

غير أن جميع هذه الآراء والمشروعات لم تحل دون قيام الحرب التي لم تقتصر على أوربا وحدها بل امتدت إلى المستعمرات الأميركية والأسيوية في صرض البحار وسبب ذلك أن أوربا لم تكن مستعدة - كما أنها غير مستعدة الآن - لقبول فكرة التعاون والاتحاد لأن دولها كانت حديثة عهد بالاستقلال شديدة الحرص عليه ولم تقبل أن تتنازل عن شئ من سيادتها في سبيل تكوين اتحاد عام وقد دفعها عوامل التنافس والغيرة والطمع الى محاولة التفوق على الغير في البر أو البحر ونشأت عن ذلك فكرة التوازن الدولى التي قضت على الدولة بضرورة التحالف ضد كل دولة تعمل بالقوة أو المصاهرة إلى توسيع سلطانها بدرجة تجعلها خطرة على الدول الأخرى . وفي سبيل هذا التوازن قامت حروب القرنين السابع عشر والثامن عشر ضد لويس الرابع عشر ملك فرنسا وضد فردريك الأكبر ملك بروسيا .

وبذلك انتضى القرن الثامن عشر وفكرة التعاون الدولي لم تعد صفحات الكتب والرسائل ولم تخرج عن نطاق أوروبا وحدها .

ثم جاء القرن "العشرون" وفي تلك الحقبة من الزمن تطورت فكرة التعاون الدولي وأخذت تظهر بمظاهر شتى ولكنها أصيبت في النهاية كسابقاتها بالإعياء والفشل .

وأول مظهر من مظاهر الاتحاد الدولي والتعاون السياسي في القرن العشرين محاولة نابليون بوناپرت تجديد عهد الاسكندر وقيصر وتآليف نظام أوروبي عام تخضع له شعوب أوروبا وترتبط أجزاؤه بعضها ببعض بقوة السيف وبأواصر القرابة والنسب وقد مهد لغرضه هذا بزواجه من ابنة امبراطور النمسا ماري لويز "وبإعلان" إخوته ملوكا على دول "أوروبا" المختلفة غير أن بقاء إنجلترا بمزمل عن النظام "الأوروبي" الذي أقامه نابليون في القارة واستمرارها على مناوئته وخروج روسيا عليه بعد اتحادها معه وظهور "روح" القومية بين الشعوب التي أخضعها نابليون بالقوة كل ذلك أدى الى تألب الدول ضده في النهاية .

فلما انعقد مؤتمر فينا في سنة ١٨١٥ لوضع قرارات الصلح شعرت الدول أن لا بد لها من نظام يصونها من خطر ظهور نابليون آخر ويعصمها من ويل الثورات والحروب في الداخل والخارج فكان نظام المؤتمر أو الاتحاد "الأوروبي" هو النظام الدولي السياسي الذي خدم أوروبا طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الى سنة ١٩١٤ حين قامت الحرب الكبرى الأولى ويعتبر المؤتمر "الأوروبي" أول محاولة جدية في سبيل تنفيذ فكرة التعاون بين الدول "الأوروبية" الحديثة وكانت الفكرة من تصنيف قيصر روسيا لاسكندر الأول وكان رجلا "تستويه" النظريات والمشروعات ذا مسحة دينية ، فحاط المؤتمر ومشروع الاتحاد الأوروبي بهالة من الاخاء والمحبة والعاطفة المسيحية مما دعى الى تسمية هذا الاتحاد بالمحالفه المقدسة .

وقد أرادت الدول من المؤتمر تأدية غرضين الأول مستمد من سيااسة القرن الثامن عشر التي كانت ترمي الى حفظ التوازن الدولي وذلك بصيانة "التسويات" الإقليمية التي وافق عليها المؤتمر في فينا ضد الأخطار التي كانت تهددها ولا سيما من جانب فرنسا، والغرض الثاني يعتبر فتحا جديدا في تاريخ التعاون بين الدول إذ اتفقت الدول فيما بينها على أن يجتمع "مندوبون" عنها في أماكن يتفق عليها لاتخاذ الوسائل التي تكفل استقرار السلام وسعادة الشعوب، ويوجب أن نقرر هنا أن المقصود بسعادة الشعوب قمع الثورات التي قد تقوم ضد الملوك كما قامت الثورة الفرنسية من قبل .

أما مشاوره الدول بعضها بعضا واجتماعها معا على قدم المساواة لمنع الحرب واستقرار السلم فكان غرضا نبيلًا اندفعت محوه الدول الكبرى لأول مرة في تاريخها الحديث وفي سبيل

تحقيق هذا الغرض لم تختلف الدول إذ ذاك ، وأما قمع الثورات بالتدخل في الشؤون الداخلية الصرفة للأمم وبخاصة الصغيرة منها فكان مثار خلاف عظيم انقسمت من أجله أوروبا إلى فريقين فكانت النمسا وبروسيا ومعهما روسيا في الغالب تمثل الروح الرجعية، أما إنجلترا ومعها فرنسا أحيانا فكانت تأتي على المؤتمر تدخله في الشؤون الداخلية للأمم ولذلك التزمت نحو المؤتمر سياسة خاصة فكانت أحيانا تعلن عزلتها عن المؤتمر وتكتفي بالاشتراك الاسمي وبمجرد حضور الجلسات ، وأحيانا كانت اشتراكها عمليا عندما كان تدخلها يوافق مصلحتها، على أن المؤتمر مالبت أن أصبح أداة استبدادية يستعملها مترنخ الوزير النمساوي الشهير الذي اقترن اسمه وسياسته النصف الأول من القرن التاسع عشر في قمع الثورات وإرهاب الشعوب الصغيرة ومناهضة مبادئ الحرية والقومية في أوروبا عامة .

ثم حدث تطور مياسي جديد في علاقات الأمم وذلك على أثر قيام حرب القرم بين روسيا وتركيا في منتصف القرن التاسع عشر سنة ١٨٥٣ وكانت الاختراعات مثل السكك الحديدية والسفن البخارية والتلغرافات واستخدام الفحم والحديد في الصناعة قد انتشرت في أنحاء العالم وأحدثت انقلابا عظيما ظهر أثره في تقريب المسافات وتوثيق الروابط بين الأمم وأصبح ما يصيب عضوا في المجتمع تهترله سائر الأعضاء .

وفي هذه الحرب حدث أمر ذوبال إذ انحازت إنجلترا وفرنسا وسرديبيا أو إيطاليا إلى جانب تركيا فانهزمت روسيا وعقدوا مؤتمرا للصلح في باريس سنة ١٨٥٦ وكان مؤتمرا خطيرا اتخذت فيه قرارات خطيرة لضمان السلام والتعاون بين الدول . وأول هذه القرارات قبول تركيا على قدم المساواة في مجموعة دول أوروبا المسيحية ولم تكن تركيا قد اشتركت أو دعت إلى الاشتراك في مؤتمر فيينا أو المؤتمرات التي تلت اللهم إلا في المؤتمرات الخاصة بشؤون تركيا وأملاكها .

وهناك مادة أضافوها إلى معاهدة الصلح فخواها أن تلجأ الدول المتعاقدة إذا استحكمت بينها الخلاف إلى دولة صديقة أو محايدة تقوم بالتحكيم بين المتخاصمين وأرادوا أن يجعلوا من هذه المادة قاعدة تسمى على سائر الدول فقالوا إن للدول التي لم تشترك في معاهدة الصلح أن تعلن انضمامها إلى هذا العهد . غير أن هذه المحاولة لم تجد إذ اعتبرت الدول أن هذه مجرد رغبة أو أمنية وليست قرارا ملزما وكانت النتيجة أنه بعد ثلاث سنوات من توقيع معاهدة باريس قامت الحرب بين إيطاليا وفرنسا من جهة وبين النمسا من جهة أخرى ثم ظهرت الروح العسكرية البروسية لأول مرة في القرن الماضي وأخذت تشق طريقها بالدم والحديد نحو السيطرة والتفوق فخاربت النمسا وهزمتها سنة ١٨٦١ ثم حاربت فرنسا وهزمتها سنة ١٨٧٠ ، وفي سنة ١٨٧٦ قامت الحرب الروسية التركية من جديد ولم تغد فكرة التحكيم التي جاءت في صلح باريس ولم تغن عن الحرب فتيلًا .

وهكذا تكسرت آمال أنصار التعاون والسلام أمام مطامع الدول وشدة حرصها على سيادتها وسمعتها واتساع رقعتها . ولكن مقابل هذا الفشل السياسى فى القرن التاسع عشر خطت فكرة التعاون الدولى خطوات واسعة فى نواح أخرى . ومما يزيد فى أهمية هذه الخطوات أنها استطالت حتى شملت البلاد المتمدنية فى جميع أنحاء العالم ولم تعد مقصورة على أوروبا كما كانت الحال أولا فانهقدت مؤتمرات دولية لعمل الترهيمات اللازمة لجعل شؤون البريد مصلحة دولية زيادة على كونه مصلحة وطنية وتكون اتحاد البريد فى سنة ١٨٧٤ وأخذت الدول تنضم تباعا إليه وأعلن مبدأ حرية التجارة لتوثيق الصلات بين الشعوب ، وفى هذا القرن ألقى الرقيق سنة ١٨٣٣ وتكونت جمعية الصليب الأحمر الدولية فى جنيف على أثر الانتهاء من حرب القوم تتابعت المؤتمرات الدولية حتى نمت من لا شىء فى أول القرن الى ٢٩ مؤتمر فى سنة ١٨٦٠ — والى ٢٤٧ وفى سنة ١٨٨٠ الى ٨٥١ فى سنة ١٩٠٠ الى ٢٣٤٩ فى سنة ١٩٢٠ ثم اضطردت الزيادة الى أكثر من ذلك .

على أن القرن التاسع عشر لم ينته من غير محاولة أخيرة فى سبيل التعاون الدولى ومنع الحرب ففى أغسطس سنة ١٨٩٨ دعا قيصر روسيا نقولا الثانى الى عقد مؤتمر دولى لوضع حد للتسابق فى التسليح ولتسوية الخلافات للدولية بطريق السلم . فانهقد المؤتمر فى لاهاي فى مايو سنة ١٨٩٩ واشتركت فيه ٢٦ دولة وانهقد المؤتمر للمرة الثانية فى لاهاي أيضا بدعوة من روزفلت رئيس الولايات المتحدة فى يونيه سنة ١٩٠٧ واشتركت فيه ٤٢ دولة أى معظم الدول المستقلة فى العالم كله لا فى أوروبا وحدها . وقد نجح المؤتمر الى درجة ما ، فى تقرير خطة لتسوية الخلافات الدولية فتممر تأليف محكمة دولية دائمة للتحكيم فى لاهاي فترسل إليها كل دولة مشتركة عددا من القضاة المتنازين لا يزيد عادة على أربعة ولبلجانيين المتنازين أن يختاروا كل منهما قاضيا خامسا يكون بمثابة رئيس لهم لبحث الخلاف وإصدار حكم فيه والى جانب التحكيم أشار المؤتمر بطريقة التوسط بين الدول المتنازعة وحض الدول أيا كانت على التدخل لمنع الحرب دون أن يعتبر توسطها تدخلا أو تطفلا أو عملا غير ودى نحو أحد المتخاصمين .

ويعتبر إقرار مبدأ التحكيم الدولى وإنشاء المحكمة الدائمة فى لاهاي من أهم الأعمال التى تمت قبل الحرب الكبرى الأولى لضمان السلام العام وتميز فكرة التعاون بين الدول .

ونلاحظ هنا بشأن محكمة التحكيم أولا أن هيئة المحكمة لم تكن ثابتة بل ترك للدول اختيار قضاتها وهذه مبالغة فى احترام السيادة الذاتية لكل دولة . ثانيا — أن هناك خلافات معينة لم تدخل فى اختصاص المحكمة وهى المتعلقة بالاستقلال والشرف والمصالح الحيوية لذلك لن يجعل إقرار مبدأ التحكيم دون قيام الحرب بين روسيا واليابان سنة ١٩٠٥ وبين إيطاليا وتركيا سنة ١٩١١ وحروب البلقان سنة ١٩١٣ ثم قيام الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤

والنتيجة أن جهود الدول في القرن التاسع عشر بدأت بالأمانى المسيحية الطيبة التي أعلنها قيصر روسيا اسكندر الأول سنة ١٨١٥ والتي أطلق عليها المحالفة المقدسة وهي التي أنتجت الكونسرت. و انتهى القرن باعلان نفس الرغبات والأمانى الطيبة على يد أحد أحفاد الاسكندر حين اقترح عقد مؤتمر لاهاى سنة ١٨٩٩

وأما في النواحي غير السياسية في المواصلات والطب والتشريع الدولى فان جهود الشعوب مع الحكومات قد أنتجت تعاوناً دولياً يمكن اعتباره أساساً ونموذجاً يحتذى عند ما تعود الدول الى حالتها الطبيعية ، ويكفى أن ننظر الى نظام اتحاد البريد العام لتدرك أهمية هذه الجهود . فاتحاد البريد الآن يضم جميع دول العالم وكل منها يتمتع بحرية داخل حدودها ولكونها مرتبطة بتنفيذ قواعد خاصة يشرف عليها المكتب العام في جنيف . وينعقد المؤتمر العام للبريد بنظام وعلى الحكومات تنفيذ قراراته مهما بلغ اعتراضها .

والآن ننقل الى المرحلة الأخيرة التي تلت الحرب الكبرى الأولى على أثر قيام الحرب الكبرى وما قاسته الشعوب والحكومات من خطوبها وويلاتها تألفت في كثير من البلاد جماعات مدفوعة بشعور واحد هو منع وقوع كارثة الحرب مرة أخرى Never again . ولما وجحت كفة الحلفاء في الحرب عقب دخول الولايات المتحدة أخذت حكومات الحلفاء تستعد للصلح . وفي يناير سنة ١٩١٨ أعلن الرئيس ولسن دستور النقط الأربعة عشر التي اعتبرها قواعد للسلم الجديد في العالم . ومن هذه النقط حق تقرير المصير للشعوب وإلغاء المعاهدات السرية بين الدول وإعلان حرية البحار وحرية التجارة وتخفيض التسليح وأخيراً النقطة الخاصة بتفهم جمعية الأمم على أساس ميثاق يكون الغرض منه أن تضمن الدول بعضها لبعض استقلالها السياسى وسلامة أراضيها دون تمييز بين دولة وأخرى كبيرة أو صغيرة .

وكان لدستور ولسن دوى عظيم بين شعوب العالم فاطبة ويعتبر من أهم التعاليم السياسية التي تأثر بها العالم بعد الحرب . ولما حل ولسن بأرض فرنسا ليحضر المؤتمر وكانت باريس تروج بطوائف من جميع شعوب العالم تنتظر ميلاد العهد الجديد في قصر فرساي كانت الجموع تغضى ببصرها أمام الرئيس وتمخى له الجباه كما لو كان أحد الآلهة القدماء جاء عبر الاطلنطى ليخلص العالم القديم مما خلفته الأجيال الماضية من خلافات وشورور وآثام .

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن الآلة الحديدية مصنوعة من الطين كبقاى مخلوقات الله من بنى آدم وأن ولسن قد تردى في مباءة السياسة الأوروبية وانغمس في أوحالها وأن المبادئ العالية والنقط الأربعة عشر قد انهدت بانها وتجزع معظمها مما دعى (كلمنصور) رئيس وزارة فرنسا ورئيس مؤتمر إنذاك أن يقول متهكماً أن ولسن قد طغى وتكبر على الله فقد جاء بأربع عشرة نقطة ، والله جلت قدرته قد أتى بعشر فقط .

وأخيرا وبعد مداولات ومناورات وبعد روحات وغدوات ونضال ونزال نخرج ولن من المؤتمر يحمل طفلا هزيبلا يحسبه الرائي الى الموت أقرب منه الى الحياة فأسرع في تسجيله في دفتر مواليد سنة ١٩١٩ باسم ميثاق عصبة الأمم وما كاد الطفل يرى النور ويسمع العالم صراخه ويتعرف عليه حتى أنكره أبوه وولى عنه مدبرا الى أميركا تاركا طفله يتربى يتقيا محروما مسلوب الإرادة تراه كلما قست عليه الظروف وادلمت حوله الخطوب يقلب وجهه في السماء وفي الأرض وفي السماء باحثا عن أمه وأبيه وعن فصيلته التي تؤويه فلا يرى مجييا ولا سميما هذه عصبة الأمم التي أريقت في سبيل الوصول إليها دماء تسعة ملايين من الأنفس عدا الجرحى والتائهين والمنكوبين في آباؤهم وثرواتهم وأجسامهم وعقولهم . ولكن يجب ألا ننسى أن نظام العصبة يمتاز على نظام المؤتمر أو الكونسرت الأوروبي الذي فسرنا الكلام عنه من وجود عدة

١ — أن المؤتمر كان مقصورا على دول أوروبا العظمى .

أما في عهد العصبة فقد فتح الباب للدول المستقلة التي تحمك نفسها لا في أوربا بحسب بل في العالم أجمع .

٢ — في نظام المؤتمر لم يعين فترات لانعقاده بل كان المؤتمر يجتمع كلما جدت ظروف تستدعي ذلك وكلما شمرت الدول بالحاجة الى التشاور والتعاون .

أما في العصبة فاتخذت لها مقرا معينا في جنيف وتجتمع جمعيتها العمومية مرة في كل عام على الأقل ويجتمع المجلس مرة كل ثلاثة شهور .

٣ — لم تكن للمؤتمر سكرتارية دائمة تنظم أعماله وتكون واسطة الاتصال بين الدول كما يقوم بالدعوة الى عقد الجلسات .

أما في العصبة فتعتبر السكرتارية العامة الاداة الساهرة الظاهرة الأثر النشيطة الفعالة . وليس العصبة جامعة للأمم حقيقة فالولايات المتحدة صاحبة الفضل في انشائها لم تكن عضوا بها وكان عدم اشتراكها أحد العوامل التي أدت الى إضعاف كلمتها يضاف الى ذلك أن الاعضاء حق الانسحاب عن العصبة .

وأما عن مدلول كلمة الأمم فالحقيقة أنها عصبة حكومات لأن الحكومات هي التي تعين " مندوبين " عن الدول المشتركة .

ويمكن ارجاع فشل العصبة الى ما يأتي :

١ — أنهم بالفوا في تمسك كل دولة بحق سيادتها الذاتية ولن يمسا هذه السيادة بشيء ولو قليل في سبيل الصالح العام فن أجل التمسك بحق السيادة تركوا للدول حق الانسحاب من العصبة مع أن مصدر القوة للعصبة هو التماسك والاتفاق بين الجميع فأى عمل من

شأنه عدم اشتراك الدول وخاصة الدول الكبرى لا بد أن يؤدي الى ضعف العصبة ، لذلك كان عدم اشتراك الولايات المتحدة صاحبة الفكرة من أهم العوامل في ضعف العصبة وكذلك كان إبعاد ألمانيا وروسيا وتركيا في أول عهد تكوين العصبة من أسباب ضعفها .

ولقد تحسنت الحال نوعا بعد انضمام ألمانيا في سنة ١٩٣٦ غير أن خروجها من العصبة عقب قيام الحكم النازي سنة ١٩٣٣ قد أعاد الحال إلى ما كانت عليه ولم تنصلح بدخول روسيا سنة ١٩٣٣ فقد انسحبت اليابان على أثر تحديدها العصبة سنة ١٩٣٢ بسبب اشتباكها مع الصين وخرجت إيطاليا على أثر توقيع العقوبات الاقتصادية عليها سنة ١٩٣٥

٢ — كذلك كانت المبالغة في المحافظة على بناء السيادة لكل دولة سببا في اشتراط اجماع الآراء في القرارات التي يصدرها مجلس العصبة أو الجمعية العمومية وهذا الشرط كان سببا في شل قرارات العصبة وتعذر تنفيذها بمجرد مخالفة إحدى الدول لها كما حصل في أثناء أزمة إيطاليا والحبشة . فتمد ظهر تمييز فرنسا لإيطاليا حين كان لافال وزيراً للخارجية وتعذر الاجماع بين الدول .

٣ — من أهم أسباب فشل العصبة عدم وجود قوة تنفيذية علميا تتولى تنفيذ قرارات العصبة في حالة عصيان إحدى الدول .

وقد اكتفى واضعو نظام العصبة بمبدأ الضمان أو التأمين المشترك وبه تسلح كل دولة مشتركة ضامنة لاستقلال زميلاتها وسلامة أراضيها فاذا اعتدت دولة على إحدى الدول المشتركة أو عددها بالحرب فإن جميع الدول المشتركة تعتبر هذا التهديد ماسا بها جميعا وعلى مجلس العصبة أن يتخذ الإجراءات التي يراها كفيلة لتأمين السلام بين الأمم، وفات واضعي نظام العصبة أن هناك دول معينة ستقع عليها مسؤولية التأمين دون غيرها وأن الدول الأخرى ستنتفع بالتأمين دون تحمل أية نفقة ولما كانت العقوبات التي نص عليها ميثاق العصبة في المادة ١٦ ضد الدولة التي تهدد السلام ولا تردع هي عقوبات اقتصادية تقوم على الحصر البحري لذلك نرى أن التأمين كله تقريبا كان لا بد أن يقع على كاهل إنجلترا وهي الدولة البحرية التي تستطيع تنفيذ الحصر البحري بالذات . وقد كانت إنجلترا في أول الأمر معتمدة على الولايات المتحدة ولكن الشعب الأميركي ظل متمسكا بمبدأ العزلة عن أوروبا والتحصن وراء مبدأ مزو وعدم الاشتراك مع دول أوروبا في ميثاق العصبة وتحمل تكاليف التأمين .

فلما تطورت الحال في الغرب وأخذت إيطاليا تسلح نفسها في البحر الأبيض المتوسط واليابان تسلح نفسها في المحيط الهادى أصبح من المتعذر على إنجلترا تحمل المسؤولية جميعها فتركزت اليابان تحتل منشوريا سنة ١٩٣٢ وتهزأ بقرارات العصبة في الشرق وتعبث باستقلال الصين كما شاءت .

ولما تحرشت إيطاليا بالحبشة وأخذت تعد العدة لها استغلت بطء الاجراءات في العصبة وعدم وجود القوة التنفيذية العليا كما استغلت مخالفة فرنسا لقرار العصبة وأوغلت في هجومها على الحبشة تحت سمع العصبة وبصرها ولم تستطع انجلترا تحمل مسؤولية حرب أوروبا لو أنها جازفت بها لتفادت وقوع الكارثة الحالية من غير شك وكان خروج إيطاليا من العصبة وتحديدها لقراراتها ونجاحها في مشروعها الضربة التي أصابت العصبة في الصميم وشجعت ألمانيا على المضي في برنامج التسلح الذي وضعته فأعلنت التجنيد الاجباري سنة ١٩٣٥ متحدياً وذلك معاهدة فرساي، وفي سنة ١٩٣٦ احتلت جيوشها أرض الرين وأقامت فيه الحصون مخالفة بذلك عهد لوكارنو ١٩٢٥ وفي سنة ١٩٣٨ صحت النمسا وفي سبتمبر سنة ١٩٣٨ اعتدت على تشيكوسلوفاكيا ولم تحرك العصبة ساكناً حتى اذا دنت ساعة الكارثة في سبتمبر سنة ١٩٣٩ كانت أوروبا تحترق والعصبة تنطف في النوم .

تبقى المرحلة الأخيرة - بعد عصبة الأمم لم تبق إلا محاولتان أخيرتان في سبيل تأمين السلام - المحاولة الأولى جاءت على يد أميركا في سنة ١٩٢٨ باعلان ميثاق كلوج وهو وزير خارجية أميركا في ذلك الوقت . فقد اتفق مع المسيو بريان وزير فرنسا على أخذ إقرار صريح من الدول الموقعة على الميثاق باستنكار الحرب كأداة لحل مشكلاتها الدولية والتعهد بتسوية مازعاتها بالطرق السلمية وقد وقع على الميثاق خمس وستون دولة أي أكثر من الدول المشتركة في العصبة . ومع أهمية هذا الإقرار من دول العالم تقريباً فإن الميثاق لم يعدو كونه عملاً صالحاً وأمنية شريفة إذ لم ينص فيه على طريقة إرغام الدولة التي تخالف الميثاق كما أن الدول من جانبها فدرت الحرب بأنها الهجوم أما الحرب بمعنى الدفاع فاعتبرتها الدول حقاً لها لا سبيل للتزول عنه لا بالمواثيق ولا بالعصبة ولا بغيرهما ومن ذلك تفهم سر تعول وزارات لبرية في العالم الى وزارات للدفاع ولو بالاسم .

وفي سنة ١٩٣٠ أصدر مسيو بريان وزير فرنسا مشروع الاتحاد الأوروبي وأخطره به الدول لتبدى رأيها فيه وقد أراد به أن يكون بمثابة تنظيم داخل العصبة فتجتمع دول أوروبا في اتحاد واحد على نظام الولايات المتحدة فكل ولاية فيها حكومة مستقلة تماماً عن غيرها وهناك سلطة فيدرائية أو اتحادية تختص بالنظر في الشؤون الخاصة بالجيش والأسطول والتجارة والعملية والمواصلات والخارجية . وعند الخلاف تحكم الولايات المتنازعة على المحكمة العليا صاحبة الرأي الأعلى .

والغريب أن بريان دعا في مشروعه الى مثل هذا الاتحاد مع بقاء الدول مستتمة بكامل استقلالها وسيادتها .

ويكفى أن نعلم أن المشروع أبصر النور في ١٩٣٠ لتدرك مقدار ما أصابه من نجاح أو فشل . فقد انسافت الدول منذ سنة ١٩٣٠ في طريق الندهور المالى والسياسى وانحدرت الى التناقص فى التسليح الى أن اشد الخلاف بينها وأصبح التعاون بينها أثرا بعد عين .

تبقى كلمة ختامية عن نظام التعاون السياسى الذى يجب أن يسود .

يجب أن يقضى نهائيا على الحواجز والأسوار التى تقيمها الدول بينها سواء كانت حواجز حركية أو سياسية . يجب أن يقضى على سياسة العزلة أو الكفافية الذاتية لأنه نظام عتيق لا يوافق التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى وصل اليه العالم بفضل المخترعات العلمية والصناعية وما ينتظر لها من تقدم مطرد .

يجب أن تتدرّب الشعوب فى سياسة الوحدة العالمية . ولا نريد أن نقول بإمكان تأليف اتحاد عالمى الآن . إنما لا بد أن تمرن الشعوب على قبول الآراء والنظم الجديدة . فمن أجل فكرة التسامح اللدىنى قامت الحروب بين الشعوب قرنين أو ثلاثة قرون ولا يزال أثر التعصب اللدىنى موجودا فى العالم إلى الآن . ومن أجل الحرية والاستقلال والحرىات القومية قد كالت الشعوب سنين طويلة ولا تزال هناك شعوب ترزح فى الاستعباد ولا تتمتع باستقلال أو وحدة قومية . وفكرة التعاون السياسى لا تزال فى طفولتها ولم تلق من الدول أو الشعوب ما يساعد على التدرج فى توسيع الفكرة .

وقد كانت إنجلترا فى الماضى والولايات المتحدة الى الآن ترى فى عزلتها عن أوروبا أكبر معوان لها على التمتع باستقلالها وسلامتها من الحروب . أما الآن وقد تضافرت القوى الطبيعية والعملية على القضاء على خرافة العزلة المنية بعد انتشار الكهرباء واللاسلكى والطيران وتقدم المواصلات بدرجة جعلت المسافات بين الممالك تقطع فى زمن أقصر مما كانت يستلزمه الانتقال فى الماضى بين المدن فى المنكة الواحدة . وبما أن هذه السرعة فى المواصلات مع استخدام المخترعات الحديثة قد حوّلت الحرب من ظاهرة محلية أو قارية الى ظاهرة دولية عالمية وان قوة التدمير أو التخريب فى الحروب لا يقتصر أثرها على الحصون والمخاربين والأهداف العسكرية ؛ ولكنها تم الأتحاء وتكسح الأرجاء ويستهدف لها النساء والأطفال والمعزة والمحايدون كثيرهم من المخاربين لذلك كله تحوّلت إنجلترا تدريجيا من سياسة العزلة الى السياسة القارية واضطرت أميركا أخيرا الى الخروج من عزلتها ومسايرة العالم الحرفى ارتباط حلقاته ونضامن أجزائه ولا شك أن أميركا بعد الحرب الحاضرة ستشارك بكامل قوتها فى تنظيم التعاون العالمى مع باقى الدول ولن تعود الى سابق غلظتها فى اعتزال السياسة الأوروبية بعد انتهاء الحرب كما فعلت فى الحرب الكبرى الأولى .

وعندى أن أوفق الآراء أن يعاد النظر في نظام العصبة الذى جربناه وخبرناه وبنيناه  
بجهودنا مدة عشرين عاما عرفنا فيه مواضع الضعف والقوة على أن تتألف العصبة لا من  
مندوبين عن الحكومات كما هى الحال الآن بل من مندوبين عن الشعوب المتحدة . فيتألف  
من الدول اتحادات كل اتحاد من مجموعة متجانسة من الدول فيكون هنالك اتحاد من شعوب

البلقان وآخر من الشعوب الشمالية واتحاد لدول وسط أوروبا لاتيى واتحاد أميركى واتحاد للشرق  
الأوسط يجمع بين مصر والسودان والحبشة والعراق وفلسطين وسوريا ولبنان وبلاد العرب الى  
آخره . وبذلك تحتفظ كل أمة باستقلالها وب نظام الحكم فى داخلها وتشارك الأمم المكونة لكل  
اتحاد فى سياستها الخارجية وفى وسائل دفاعها وتجارها وعماتها . وذلك يتكون مجلس اتحادى  
يمثل جميع أعضاء الاتحاد ويكون من اختصاصه الفصل فى هذه المسائل .

ويجب أن نذكر أن تأليف هذه الاتحادات ليس بدعا ولا يعد من قبيل الخيالات  
أو الرغبات النظرية بل ان هذا النظام قائم فى سويسرا وفى الولايات المتحدة وقائم اقتصاديا  
فى اتحاد البريد والتلغراف والراديو .

وكلنا نذكره ما اقترحه انجلترا على فرنسا عند ما أحدى بها الخطر الألمانى فى صيف  
سنة ١٩٤٠ إذ عرضت عليها رسميا أن تتحد معها فى حكومة واحدة ولولا الضغط الألمانى  
لقبلت فرنسا .

ولا ننسى أن مجموعة الأمم الحرة التى تنظمها الامبراطوية البريطانية الآن ما هى إلا اتحاد  
متجانس بين دول وشعوب مستقلة تماما ولها وزاراتها وبرلماناتها وهذه البرلمانات هى التى  
تقرر حتى السلم والحرب دون ارتباط بما يفعله برلمان انجلترا .

ومتى تم تكوين هذه الاتحادات وتألف من مندوبين المنتخبين لا المعينين مجلس العصبة  
أصبحت قضية التعاون والسلام بين الأمم فى يد الشعوب لا فى يد الحكومات وإرادة  
الشعوب إذا اجتمعت كانت أقوى من جيوش العالم طرا .